المحاضرة رقم 02

ابعاد ومجالات التفلسف

يمكن فهم حقيقة مجالات الفلسفة من خلال مباحثها الثلاث و المتمثلة في: مبحث الوجود ومبحث القيم و مبحث المعرفة ومن خلال هذه المباحث تتولد مجموعة من الأوليات في الفلسفة يمكن حصرها في النقاط التالية :

1/ النقد الفلسفي

العمل النقدي يقتضي القيام بتحليل واف لوظائف المعرفة وللذات العارفة، وبالتالي فهو لا يكتفي بتحليل الظواهر النفسية كما يقتصر على ذلك التجريبيون، بل يجب القيام بتحليلها تحليلاً منطقياً عقلياً، إلا أن مثل هذا التحليل لا يمكن أن يسمى تحليلاً متعالياً، لأن الاقتصار على تحليل مضامين الفكر من أجل تفسير المعرفة، يفترض تبني الموقف المثالي الذي يحصر الوجود في التصورات فهو يفترض التسليم بأن ما نعرفه هو من إنشاء الذات العارفة لا غير، وأما إذا كنا نعرف أن المعرفة إنما تتولد من تلاقي ذات وموضوع مستقل بوجوده، فإن تفسير المعرفة يقتضي تحليل طرفي التلاقي كليهما لبيان كيفية التلاقي هذا.

إذن فطريقة النقد الفلسفي يجب أن تكون هي التفكير الشامل والتحليل المستقصي، فيجب أن تكون نظراً شاملاً في جميع مكونات المعرفة أياً كان مصدرها ذاتياً أو موضوعياً، وفي العلاقات التي تربط بعضها ببعض أياً كانت صورتها بسيطة أو مركبة، وينبغي أن يتم ذلك بحسب ما يجب أن تكون هذه المكونات وهذه العلاقات من حيث هي تعبير عن الحقيقة والواقع.

وبالتالي فإن هذا التفكير لكي يكون شاملاً يجب عليه أن يتتبع جميع المعطيات المعرفية المختلفة، وأن يميز بعضها من بعض وأن يتعرف فيها ما يعبر منها على الحقيقة، وما لا يعبر عليها، وبهذا يتبين أن التفكير الميتافيزيائي، تفكير نقدي يتبنى أحكاماً ويتجنب أخرى، وهو في الحالتين يعتمد الحجة، فهو ليس تفكيراً خيالياً لا ضابط له، كما يعتقد بعض الناس الذين يتهمون الميتافيزياء بأنها مسرح للتخيل الجامح، بل هو تفكير ناقد يتناول حتى نفسه دون أن يسقط في دوامة الشك، إذ ينبغي له أن يشك في مشروعية الشك متى اعترضت سبيله البداهة التي لا يكون رفضها سوى عدول عن التفكير.

ولكي يكون التحليل مستقصياً يجب عليه أن يتتبع جميع صور التركيب التي يمكن أن تكون عليها الكائنات والعلاقات القائمة بينها، فيميز العلاقة البسيطة من العلاقة المركبة، ويتعرف طرفي العلاقة في كل نوع، كما يكشف عن العلاقة الصحيحة الكائنة، أو التي يجب أن تكون بين الأشياء التي ينظر فيها،

وبهذا يتبين أن التحليل الميتافيزيائي يتجاوز معطيات الموضوعات المعرفية إلى معطيات الذات العارفة نفسها، ويطمح إلى تحليل عملية التحليل ذاتها من حيث مشروعيتها وقيمة ممارستها من أجل الوصول إلى الحقيقة دون أن يتردى التحليل الفلسفي بذلك في خدعة التلاعب اللفظي الذي يعينه كثير من المفكرين على الميتافيزيائيين، الذين يتهمون بأنهم ينشئون الحقائق من الألفاظ، وهو يظنون أنهم يعبرون عن الحقائق بالألفاظ.

وعلى هذا فالتحليل الفلسفي عند أصحابه الذين يعرفونه ويقدرون عليه هو تحليل نفدي يفرز الصحيح من الزائف، ويتسلط حتى على نفسه لكي يبقى واعياً قادراً على اجتناب الخداع اللفظي.

ويمكن أن يتم النقد الفلسفي بواسطة الأعمال التالية التي ننتقيها من بين أعمال أخرى كثيرة، من مجموعها يتكون النقد الفلسفي، ومن هذه الأعمال:

- وصف المعرفة من خلال ظواهرها النفسية لمعرفة علاقة الذات العارفة بالموضوع المعروف، ولتحديد مقدار مساهمة كل من الذات والموضوع في تكوين المعرفة.

- تقييم هذه المعرفة تقييماً لا يستهدف بالذات الشك فيها بصورة مسبقة كما يفعل أصحاب الشك المطلق، بل يكون الغرض منه التمحيص والتأكد من وجود المبرر الذي يوجب القبول أو الرد.

- اعتماد البداهة العقلية عند القبول أو الرد، لأن البديهي لا يمكن للعقل رده دون تناقض، فيكون مجرد مفعول لعمل قوانين العقل التي ليس بالإمكان برهانها بل هي تبرر نفسها بنفسها، فالبداهة أساس كل معرفة.

اعتبار البداهة أمراً واقعاً بحيث يمكن تبريرها أياً كان موضوعها، بردها إلى المعارف الأولية التي ترتد إليها سواء أكانت موضوعية أو ذاتية، وسواء أكانت ضرورية أو نظرية.

الحذر من فصل الوصف النفسي للمعرفة عن الواقع، أياً كان هذا الواقع موضوعياً أو ذاتياً، وبالتالي الحذر من فصل العقل عن الوجود، لأنه لا وجود لعقل بدون وجود معقول، فالعقل هو عقل لموجود.

- مسلمات النقد الفلسفي :

إذا كانت الميتافيزياء قائمة على النقد الفلسفي، فإن هذا لا يلزم منه أن نقد المعرفة يستلزم نقد كل معرفة على غرار ما فعل الإمام الغزالي وديكارت، إذ يبدو أن النقد يجب أن يكون شاملاً لا يترك سيئاً إلا شك في صدقه. يقول غوبلو ان الذي يبيع لنفسه بدافع الوطنية او الدين او الاخلاق ان يخفي رايا او

يحرف ادنى تعريف في الوقائع التي يدرسها و النتائج التي يستنتجها فهو غير جدير بمكانه الكبير في العمل حيث النزاهة شهادة اكثر ضرورة للالتحاق به من البراعة او الكفاءة.

لكن لا يمكن الشك في كل شيء، وإلا فقد الشك أساسه، إذ معطيات المشكلة المطروحة على بساط البحث لا يمكن الشك فيها، وإلا تعذر علينا تصور المشكلة ذاتها، من ذلك أن وضع علامة استفهام على ورقة بيضاء لا معنى له لدى العقلاء، بل إن ظهور مشكلة جديرة بالبحث إنما يكون ويتيسر بتصور عناصر هذه المشكلة المراد بحثها والكشف عن المجهول فيها، ولا يمكن تحديد المجهول إلا بنسبته إلى المعلوم، فيكون البحث عن المجهول موقفا على وجود المعلوم أو المعلومات.

ويترتب على هذا أن لكل بحث ولكل علم معارف أولية ينطلق منها وبوجودها يكون العلم ممكنا والبحث متيسراً، فتكون هذه المعلومات الأولية شروطاً ضرورية للقيام بالبحث، ولهذا تنبغي معرفتها وهي نوعان:

- الشروط الصورية :

والتي منها :

أ- مبادئ المنطق وقواعد الاستنتاج

ب- العقل السليم الفطري القادر على التمييز بين الخطأ والصواب، دون أن يتأثر في ذلك بمؤثرات التربية والاعتقادات والتوجيه، وكل محاور لغيره إنما يحاوره مفترضاً أن لغيره هذا عقلاً فطرياً قادراً على قبول ما يرغب في إقناعه به أو على رفضه، ولولا اقتناعه بأن لغيره عقلاً يميز به الصواب والخطأ لما أقدم على محاورته.

ج- تصور الحقيقة التي ترتد إليها المعارف وتقاس بها، فيقبل بعضها ويرفض بعضها الآخر متى كانت مضادة أو مناقضة لها، فلكل فيلسوف فكرة عن الحقيقة التي يسلم بها ويقتنع لها ويريد من غيره أن يسلم بها ويقتنع مثله بها.

- الشروط المادية :

والتي منها:

وجود موضوع هو (المعرفة)، فالنقد الفلسفي يجعل من المعرفة الفلسفية موضوعه الذي يبحثه فيه وعنه وبه، فالقيام بالنقد مبني على وجود معارف وعلى ممارسة المعرفة بواسطة المعرفة، إذ لا يمكن النظر في شيء بدون معرفة أي شيء، وكما يرى (هيغل) (1770-1831م) فإن من يزعم أن بإمكانه أن يفكر من دون أن تكون لديه معارف سابقة، مثله كمثل من يريد تعلم السباحة قبل أن يلقي بنفسه في الماء.

فيكون من شروط النقد الفلسفي وجود معارف، واستعمالها في نقد المعرفة ذاتها، وليس في هذا دور ولا مصادرة على المطلوب، لأن المعارف الناقدة غير المنقودة، فالنقد الفلسفي لا يتناول المعارف الأولية بل إنه يحصل بها. وهذا ما أكد عليه باشلار مبينا أن العلم لا يخرج من الجهل كما يخرج النور من الظلام لأن الجهل ليس له بنية.

و ما نخلص اليه هو أن الموقف النقدي الفلسفي ليس موقفاً طبيعياً، وأن الإنسان إذا ما ساير عفويته ولم يخرج عن سجيته، فإنه لا يضطر إليه، فيكون الموقف النقدي موقفاً إرادياً يفتعله الإنسان افتعالاً، إذ لو كان طبيعياً لكان ضرورياً يجري ويحصل من الإنسان بالفطرة، ولكان عاما بين الناس، والواقع يبين أن الأمر ليس كذلك أبداً، بل الموقف النقدي الفلسفي يختص به النظار المحققون في طبيعة المعرفة.

2/ الفلسفة والدين

من العلوم المعروفة عند المسلمين علم الكلام ، وهو علم يهتم بالدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وقد سار هذا العلم على منوال شرح الأصول الدينية بناء على مضامين فكرية ومعطيات فلسفية ، ومن خلال منهج يتحد فيه النقل بالعقل والوحي بالبرهان ، وبذلك خطى الفكر الإسلامي خطوة نحو التفلسف فكانت الفلسفة الإسلامية ، ومن أعلامها ابن رشد فكيف برر علاقة الفلسفة بالدين ؟

جاءت بعض أراء ابن رشد الفلسفية كرد على كتابات أبو حامد الغزالي الذي تسلح بالدين والمنطق لنصرة العقيدة ، وهاجم الفلاسفة أكثر من مرة خاصة في كتابه تهافت الفلاسفة ، وهذا ما جعل ابن رشد يتصدى له من خلال كتابه تهافت التهافت وكتابه فصل المقال إذ تسلح ابن رشد بالمنطق والدين ليدفع التهمة عن الفلسفة والفلاسفة و وضح العلاقة بين الدين والفلسفة مبينا أن لا خلاف بين الحكمة والشريعة وفي هذا يقول : " **إن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع ، إذا كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا عليه الشرع** ".

إذن يرى ابن رشد بأن الشريعة إذا أولت تأويلا سليما فإنها تتفق كل الاتفاق مع الفلسفة شريطة فهم الفلسفة فهما صحيحا وعميقا يقول ابن رشد:" **وكل شريعة كانت بالوحي فالعقل يخالطها** "

بمعنى أن كل منقول صريح من الله عن طريق الرسل والذي لم يتعرض الى تحريف فإنه لا شك سيتوافق مع كل معقول سليم ويقول أيضا : " **والعلم المتلقي من قبل الوحي إنما جاء متمما لعلوم**

العقل ، أعني أن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله تعالى الإنسان من قبل الوحي ". تفيد هذه الأقوال بأن رشد ينفي تماما وجود تناقض بين الدين والفلسفة بل على العكس فجوهرهما التكامل يقول في ذلك : << **الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ... وهما المصطحبتان بالطبع، والمتحابتان بالجوهر والغريزة** >>.

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقيم على الحجة وانصرف إلى العقل وهذا ما يظهر في قوله عز وجل **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)** وقوله أيضا **(أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء)** هذه الآيات وغيرها تأمر الإنسان بالتفكر في خلق الله حتى يتم الاهتداء إلى الخالق وما الفلسفة في النهاية إلا نوع من التفكير وهذا ما حث عليه الشرع.

غير أننا لا يجب ان نفتن بآراء ابن رشد لأنها ليست أحكام مطلقة. فالفلسفة إن كانت مطلوبة كنوع من التفكير والتأمل فإن هذا التأمل مشروط فلا يجوز مثلا التأمل والتفكر في ذات الله لأن هذا الأمر أعلى من حدود مدركات العقل. فإن كان للعين مسافة تبصر دونها، وللأذن مسافة تسمع دونها، فإن للعقل مسافة يدرك حدودا يدرك دونها.

الفلسفة في نظر ابن رشد نوع من التفكير والنظر والتفكير واجب بالشرع والعقل و لا يمكن فهم حقيقة خالق الوجود الا من خلال التفلسف أو الوحي.

3/ ماهية مشكلة المعرفة

ما وراء الطبيعة أو (الميتافيزيقا):علم يدرس الواقع والوجود من حيث طبيعتهما الأساسية، كما يدرس ماهية الأشياء. ومن الباحثين من يقسم علم ما وراء الطبيعة إلى ميدانين: علم الوجود، وعلم الكون. فعلم الوجود يدرس الموجودات؛ أما علم الكون فيدرس الكون الطبيعي ككل. كما أن علم الكون يُقصد به ذلك الفرع من العلوم الذي يدرس نظام الكون وتاريخه ومستقبله. يتناول علم ما وراء الطبيعة مسائل من نوع: ما الواقع؟ ما الفرق بين الظاهر والواقع؟ ما المبادئ والمفاهيم العامة التي يمكن بموجبها تأويل تجاربنا وفهمها؟ هل لدينا إرادة حرة أم أن أعمالنا مُسيرة بأسباب ليس لنا فيها خيار؟

لقد أوجد الفلاسفة عددًا من النظريات في علم ما وراء الطبيعة وهي: المادية والمثالية، والآلية، والغائية. إن المادية تؤكد أن المادة وحدها هي التي لها وجود حقيقي، وأن المشاعر والأفكار وغير ذلك من الظواهر العقلية إنما هي ناتجة عن نشاط المادة. وتقرر المثالية بأن أي شيء مادي إنما هو فكرة أو شكل من أشكال الفكرة، وبمقتضاها فإن الظواهر العقلية هي وحدها المهمة والمطابقة للحقيقة. أما الآلية فتؤكد أن كل الأحداث إنما هي ناتجة عن قوى آلية محضة، وليس عن غاية معينة، بل لا يعقل أن نقول إن الكون في حد ذاته من ورائه غاية معينة. أما الغائية، فهي على العكس، تقرر بأن الكون وكل شيء فيه يتصف بالوجود والحدوث من أجل غاية معينة. وكل هذه الاختلافات في الرؤى مردها الى الاختلاف في نظرية المعرفة فكان الاشتغال الفلسفي للمذاهب في بداية تأسيسها هو سؤال المعرفة المتضمن لكيفية وآلية المعرفة .

إن المتتبع لتاريخ الفكر الفلسفي لا يعبأ أن يلاحظ أن مشكلة المعرفة كانت ملازمة للتفلسف، لكن وضوح مشكلة المعرفة كأحد اهتمامات الفلاسفة كان يشتد بتطور الفكر الفلسفي ، كما كان يشتد أهمية لضرورته الإنسانية والفلسفية والعلمية على حد سواء.

فقد نشأ التساؤل عن موضوعات المعرفة وعن علتها في أحضان غيره من التساؤلات الفلسفية التي تثيرها في الإنسان طبيعته المتطلعة إلى المعرفة، ثم انفصل عنها وتطور يوما بعد يوم.

المراجع :

- **موريس أنجرس: منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**
- **جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1،**
- **محمود فهمي زيدان : الاستقراء والمنهج العلمي ، دار الجامعات المصرية الاسكندرية ،1977**
- **جمال ميموني و نضال قسوم : قصة الكون ، دار المعرفة الجزائر، 2002**
- **محمود قاسم: المنطق الحديث و مناهج البحث، ط6 ، دار المعارف مصر**
- **عبد الرحمان بدوي : المنطق الصوري و الرياضي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، 1968**
- **لالاند : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة خليل احمد خليل .**

- محمود يعقوبي، خلاصة الميتافيزيقا ، ج2 .

- غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد ، ترجمة عادل العوا، تقديم جلالي اليابس، موفم للنشر الجزائر، 1994 - الدراجي زروخي : المذاهب الفلسفية الكبرى ، دارصبحي للطباعة و النشر، 2015

- الدراجي زروخي : منهجية البحث الفلسفي : دارصبحي للطباعة و النشر، 2013

- الدراجي زروخي : إشكاليات أساسية في العلوم الاجتماعية ، دارصبحي للطباعة و النشر، 2013

أ.د. رحاب مختار